

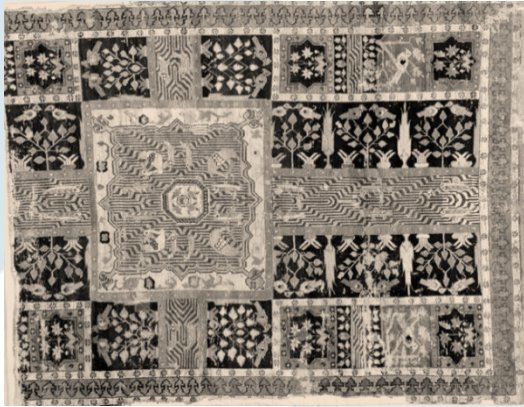
التطور التاريخي للحدائق - الجزء (2)

HISTORY OF GARDENS

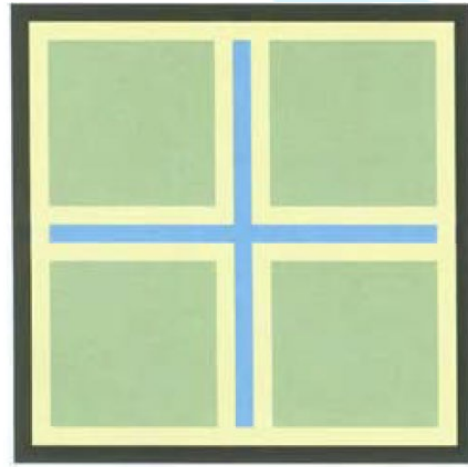
4. الحدائق في الحضارة الفارسية

امتدت بلاد فارس ضمن منطقة غنية يعبرها منذ القدم طريق الحرير الواصل بين الصين وأوروبا، وبدأت الحضارات بالظهور فيها حوالي عام 3000 ق. م. الدولة الأخمينية التي أسست من قبل كسرى Cyrus (529-590 ق.م.) وحكمت من قبل داريوس الأول Darius I (486-550 ق.م.) امتدت من الهند إلى اليونان مروراً ببلاد الرافدين. وبالتالي تأثرت الحضارة الفارسية بحضارة هذه المناطق وخاصة فيما يتعلق بالحدائق الأشورية وانتظامها. حيث بنيت مدن وقصور واسعة تضم حدائق ذات ممرات مستقيمة ومتعامدة.

ترتبط الحدائق الفارسية بفكرة حدائق الفردوس أو حدائق الجنة خاصة وأن كلمة بايري ديسا pairi daēza تعني باللغة الفارسية القديمة حرفياً المنطقة المسورة أي نفس المعنى الذي تحمله كلمة حديقة باللغة العربية وغيرها من اللغات. وقد تطورت من هذه الحدائق المبكرة كلمة فردوس وجنة الفردوس بالعربية وغيرها وأصبح مفهوم جنات عدن في الديانات المختلفة يرتبط بالحديقة السماوية التي خرج منها الإنسان ويأمل أن يعود إليها.



سجادة فارسية تمثل حديقة ذات تصميم رباعي



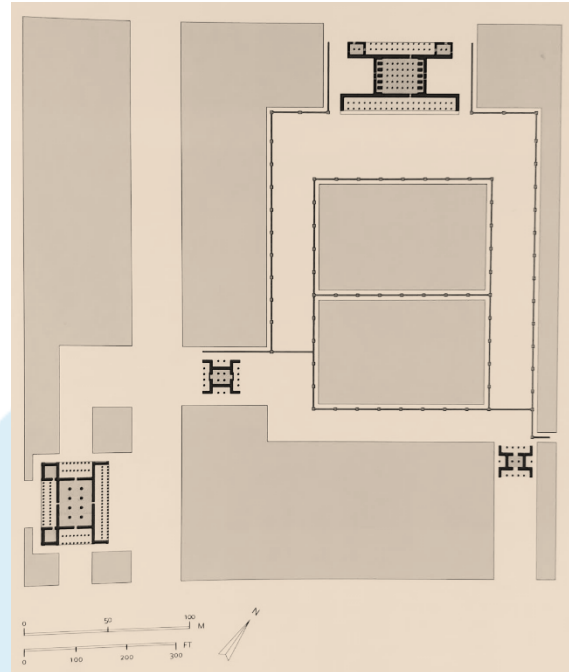
التصميم الرباعي المعروف بـ "جهار باغ" chahar bagh

يسيطر على الحديقة الفارسية ما يعرف بالتصميم الرباعي المعروف بـ "جهار باغ" chahar bagh، فجهار تعني أربعة وباغ تعني حديقة باللغة الفارسية أي أنه لدينا حديقة مكونة من أربعة حدائق.

الحديقة الفارسية حديقة مسورة مربعة أو مستطيلة الشكل في تخطيطها، وهي تقسم إلى أربعة أقسام متماثلة بواسطة محورين متعامدين هما عبارة عن قنوات مياه تلتقي في مركز الحديقة ضمن بركة مياه أو نافورة ذات شكل هندسي. وأحيانا تتوسط الحديقة مقصورة Pavilion أي بناء صغير مسقوف ولكنه مفتوح على الحديقة. تحيط بقنوات المياه المتعامدة من الجانبين ممرات للتنزه تؤكد على الأهمية البصرية للمحاور. أما المساحات الخضراء ذات الأشكال المنتظمة التي تمثل العناصر الأربعة الأساسية في العالم القديم وهي: التراب والماء والنار والهواء، فكانت عبارة عن مرج تتوزع ضمنه الأزهار وخاصة الورود إضافة إلى الأشجار المثمرة مع إحاطة الممرات الرئيسة بصفوف من الأشجار المتناظرة.

إن برودة الجو شتاء في بلاد فارس وتساقط الثلوج كان يمنع الخروج للتمتع بالحدائق، مما أبرز صناعة السجاد الفارسي الذي يصور مشاهد من الحدائق ومنها ما يمثل التصميم الرباعي بتفاصيله.

عموما التصميم الرباعي للحدائق ذو أصول قديمة جدا تعود إلى ما قبل 5000 عاما ولا يمكن معرفه أصله تماما فالفكرة قديمة ولا يمكن تتبع مسارها وتطورها بدقة يمكن أن تكون من بلاد الرافدين أو بلاد فارس.



مدينة باساركاد (550 ق.م.): مخطط القصور مع الحدائق- صورة جوية - قنوات المياه الحجرية

يعد تخطيط مدينة باساركاد Pasargadae التي أنشأها الأخمينيين في منتصف القرن السادس ق.م. (550 ق.م) الواقعة قرب مدينة شيراز من أوائل الأمثلة على تطبيق التصميم الرباعي "جهار باغ". إذ عثر فيها على بقايا قنوات مائية حجرية تحدد تصميم المساحات الحدائقية الواقعة بين القصرين بإطارات مستطيلة الشكل مقسومة إلى جزأين متماثلين تحيط بهما ممرات من التراب المدكوك والحصى، وعلى جانبا الأخرى قنوات أخرى تكرر الشكل نفسه مع وجود مقصورتين كانتا تستخدمان لتناول الطعام وللقاءات الاجتماعية والاستمتاع بالنسائم العليقة في منطقة مظلمة ضمن الحديقة، التي يعتقد أنها كانت مزروعة بأشجار السرو والرمان والكرز.

بعد انهيار الحكم السلوقي (الإغريقي) عام 138 م سيطر الفرس أو الساسانيين على الحكم حتى عام 637 م (حتى سيطرة المسلمين على بلاد فارس). تم في فترة الدولة الساسانية بناء مدن مهمة تضم قصورا فخمة ومشهورة وتلحق بها حدائق منتظمة، إذ أنشأ داريوس الأول عاصمتين الأولى التمثيلية تدعى بيرسيبوليس Persepolis والثانية إدارية تدعى سوسة Susa تظهر فيهما تأثيرات محلية سابقة إضافة إلى تأثيرات إغريقية ورومانية. فكانت الحدائق منتظمة ومحاطة بأسوار مرتفعة أما شوارع المواكب الأساسية فكانت مزروعة بالأشجار على الجانبين، كما يظهر من خلال النقوش الحجرية على أطراف الأدرج الفخمة المؤدية إلى صالة الأعمدة المعروفة بـ Apadana في مدينة بيرسيبوليس.

خلاصة

يمكن تلخيص خصائص الحدائق الفارسية بما يلي:

- ظهور مصطلح حدائق الفردوس التي تمثل الجنة.
- الحدائق محاطة بسور ومفصولة عن المحيط.
- الانتظام الشديد واعتماد الأشكال الهندسية في التصميم.
- التصميم الرباعي للحدائق "جهار باغ".
- الاهتمام بقنوات المياه والبرك والنوافير.
- المقصورات مكون أساسيا وكثيرا ما تتوضع بشكل مركزي ضمن الحديقة.

جميع هذه الخصائص مهمة جدا لأنها أثرت لاحقا بشكل كبير على تصميم الحدائق الإسلامية ابتداء القصور العباسية في سامراء وقصور الأندلس إلى القصور الصفوية في إيران والحدائق في الهند الإسلامية وغيرها وخاصة فيما يتعلق بحدائق الفردوس والتصميم الرباعي للحدائق.

5. الحدائق في الحضارة الإغريقية

المعلومات المتوفرة عن الحدائق في الحضارة الإغريقية تعد أقل من تلك التي تخص الحدائق في الحضارة المصرية التي سبقتها بما يزيد عن ألف عام. السبب في ذلك يعود إلى الدمار وإعادة البناء المتكررة التي شهدتها الكثير من المدن الإغريقية إضافة إلى قلة الرسومات التي وصلتنا ما عدا تلك الموجودة على الأنية الخزفية. أغلب ما نعرفه عن هذه الحدائق تم استقاؤه من المصادر الأدبية الشهيرة مثل الإلياذة والأوديسة لهوميروس، التي ورد فيها وصف لمناطق خضراء على شكل أفنية وحدائق وغابات وغالبا ما كانت حدائق ذات منفعة تزرع فيها الأشجار المثمرة والخضروات.

بعد اختلاف النظام السياسي الإغريقي الذي اعتمد على مجالس المدن المنتخبة من الاختلافات الأساسية التي تميز هذه الحضارة عن سابقتها ولذلك تأثير على تطور الحدائق فيها، فمع عدم تركيز السلطة والغنى في يد طبقة صغيرة لا نجد أن الحدائق الخاصة من حدائق صيد أو حدائق القصور الكبيرة لعبت دورا عند الإغريق في البداية. كما أن الكثافة التي كانت تتميز بها المدن الإغريقية والأحياء السكنية شكلت عائقا أمام إنشاء مساحات حدائقية خضراء ضمن المدن أو حدائق خاصة ضمن البيوت.

إن العامل المؤثر الأكبر في نشوء الحدائق عند الإغريق كان العامل الديني لاعتقادهم بتأثير الآلهة على حياتهم اليومية ولجوئهم إلى تقديم الهدايا للآلهة في مناطق طبيعية مقدسة يتم تثبيت حدودها بحجارة أو جدران وبذلك نشأت أولى الحدائق عند الإغريق.

أ- الغابات المقدسة عند الإغريق sacred groves

أول غابة مقدسة كانت غالبا عبارة عن مذبح بسيط وضع ضمن غابة أو تحت مجموعة من الأشجار وربما قرب كهف وعين ماء مقدسة، مما جعل الغابات الموجودة خارج المدن أماكن لقاء بين الإنسان والطبيعة والآلهة حسب المعتقدات الإغريقية.

هذه الأماكن الطبيعية المقدسة تحولت مع الزمن إلى مجمعات مسورة تضم المعابد وخزائن للبهات treasuries. بل إن تطور ونشوء عدد من أشهر المدن الإغريقية ارتبط بوجود مثل هذه الأماكن المقدسة فيها أو قربها، منها مدينة أوليمبيا Olympia قرب جبل كرونوس Mount Kronos، الذي اعتقد الإغريق أنه مقر الآلهة، فأقيم قرب الجبل والغابة المقدسة معبد ضخم لعبادة كبير الآلهة زيوس ومعبد هيرا مع سلسلة من خزائن الهبات على سفح الجبل وتتوزع ضمن الغابة وفي المساحات بين المباني هياكل صغيرة وتمائيل للآلهة المختلفة (أصبحت لاحقا جزء من الحدائق الإغريقية والرومانية ومن ثم الحدائق التاريخية في أوروبا عبر العصور وصولا إلى العصر الحديث). وحدة الديانة كانت تربط بين سكان المدن الإغريقية المتحاربة وتفرض عليهم السلام في مناسبات دينية معينة حيث تقام الاحتفالات والطقوس الدينية وترافقها المنافسات الرياضية المعروفة بالألعاب الأولمبية التي خصص لها ملعب Stadium وحلبة لسباق العربات Hippodrome تقع بجوار المنطقة المقدسة.

وألحق بها أيضا ما يعرف بحدائق الفلاسفة المخصصة للتدريس وتداول الأفكار مثل أكاديمية أفلاطون التي كانت تقع ضمن بستان من شجر الزيتون إضافة إلى مباني التدريس الرياضي المعروفة بالبلايستيرو والجمنازيون.



أوليمبيا: مجسم متخيل للمنطقة المقدسة



أوليمبيا: مخطط للمنطقة المقدسة

يوضح المناطق الخضراء والغابة

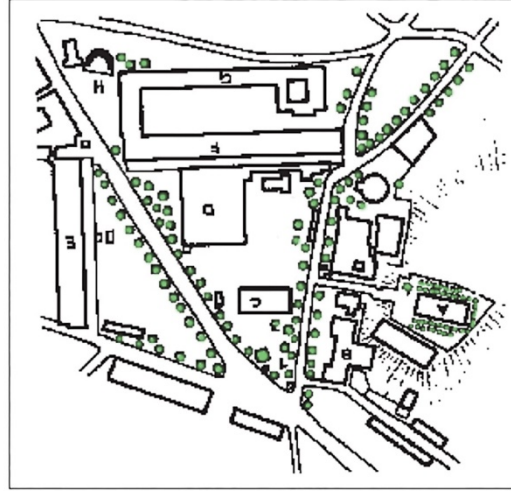
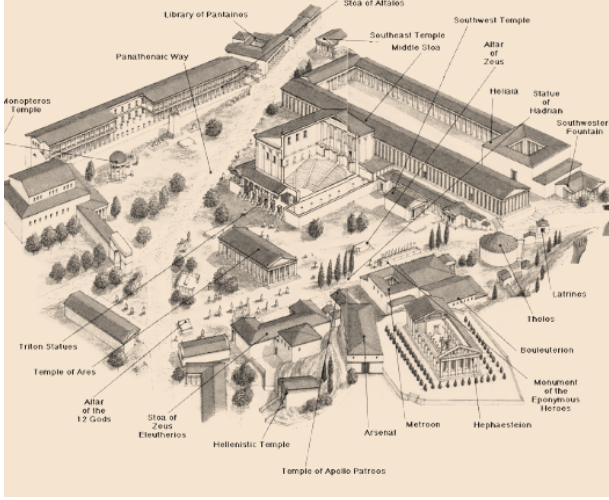
ولا تقل أهمية المناطق المقدسة في مدينتي دلفي Delphi وديلوس Delos المخصصتان لعبادة الإله أبوللو أهمية وكذلك مدينة أثينا المخصصة لعبادة الإلهة أثينا والتي تتركز في منطقة الأكربول المرتفعة ضمن المدينة والتي توجد على سفحها عين ماء مقدسة ومناطق مشجرة.

ب- الحدائق داخل المدن وفي الساحات العامة الأغورا

تشكل ساحة عامة معروفة بالـ أغورا Agora مركز كل مدينة إغريقية فهي ساحة سوق وحرف مهنية واجتماعات وتحيط بها مبان دينية وأخرى عامة مثل البوليوتيريون (مجلس المدينة) إضافة إلى مباني الأروقة التي تشكل فراغات واسعة مسقوفة تنتقل إليها الفعاليات المختلفة للوقاية من عوامل الطقس من شمس ومطر.

تدل البقايا الأثرية على أن جزء من هذه الساحات ومحيطها كان يزرع بالأشجار العالية التي تمنح الظلال ليقف تحتها الناس والفلاسفة والوعاظ وهم يلقون خطبهم، كما كان الحال في أغورا مدينة أثينا التي وجد فيها أيضا دلائل تشير إلى أن الشارع الرئيس، الذي كان يقطع الساحة بشكل قطري مؤديا إلى الأكربول، كان مشجرا من الجانبين بأشجار الدلب المروية بقنوات مياه. كما وجد شمال الساحة هيكل لـ 12 إلهة ضمن مساحة مسورة ومزروعة بأشجار الغار والزيتون والرمان أو السرو، إضافة إلى أشجار أخرى مزروعة بشكل متفرق ضمن الساحة. وبذلك نشأت أولى

الحقائق العامة المخصصة للشعب في التاريخ بما يتناسب مع الاستخدام العام لهذه الساحات من قبل جميع سكان المدينة.

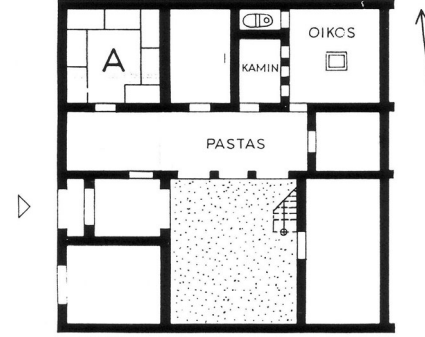
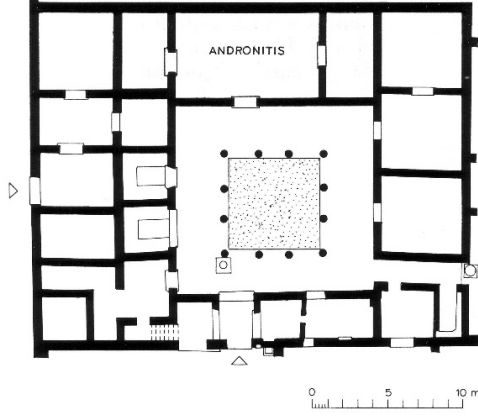


أغورا مدينة أثينا: تصور لتوزيع الأشجار ضمن الساحة

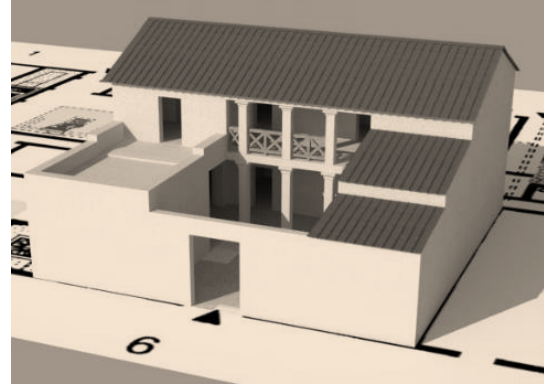
وأصبح من المؤلف إحاطة المعابد بمجموعة من الأشجار أو الشجيرات كما في معبد هيفائستوس Hephaistos Temple الواقع غرب ساحة الأغورا في أثينا، حيث عثر على بقايا أماكن غرس شجيرات مع قنوات لريها تحيط بالمبنى بشكل صفيين متوازيين (تم زراعة نباتات حول أطلال المبنى تعبر عن ذلك حديثاً). كما كان السفح الجنوبي للأكروبول، المقابل لساحة الأغورا عبارة عن منطقة مشجرة مقدسة مخصصة للإلهين ديونيس وأسكليبيوس يتخللها ينابيع مياه، مما جعلها منطقة تنزه واستشفاء للأثينيين، ولا تزال المنطقة الأثرية اليوم تعكس جزء من هذه الخصائص.

ج- حقائق البيوت الإغريقية

تأثر تصميم البيوت الإغريقية بالبيوت ذات الأفنية في الحضارات المشرقية في بلاد الرافدين وبلاد الشام ومصر، فكانت جميع البيوت السكنية تحوي على فناء داخلي أو أكثر سواء في المدن ذات التخطيط القديم غير المنتظم مثل مدن أثينا أو ديلوس أو المدن ذات التخطيط الهيبودامي المنتظم الذي يقسم الأحياء السكنية إلى شرائح مستطيلة تدعى إنزولا كما في مدينة ميليتوس وبرينيه وغيرها. ولكن أفنية البيوت كانت ذات مساحة صغيرة (حوالي 50-60 م²) وبالتالي لم تعرف تنسيق حدائقي، بما لهذه الكلمة من معنى، فهي أفنية مكشوفة تطل عليها الغرف في النماذج السكنية المختلفة وغالباً ما كانت مرصوفة (أحياناً فقط تراب مدوك) ومخصصة لمعيشة الأسرة وللأعمال المنزلية المختلفة ولكن يمكن أن تزينها تماثيل وبعض النباتات المزروعة ضمن أصص فخارية، كما كانت تضم أحياناً هياكل للعبادة المنزلية وبئراً. يمكن أن نتصور ذلك من خلال آثار بيوت مدينة بريينه Priene ومدينة أولينثوس Olynthus.



بيوت مدينة ديلوس من نموذج البيريستيل



بيوت مدينة أولينتوس من نموذج الباستاس

أشهر البيوت وأكثرها حفاظا هي تلك التي تم الكشف عنها في مدينة ديلوس Delos في إحدى جزر بحر إيجه. وهي بيوت ذات أفنية مستطيلة الشكل كثيرا ما يوجد تحتها خزان لتجميع مياه الأمطار. أفنية البيوت الكبيرة كانت محاطة بأروقة من جميع الجهات peristyle ولكنها جميعا لم تكن تحوي أماكن مخصصة للمزروعات ولكن يتميز بعضها بأرضية من الموزاييك الحجري. ونظرا لقلّة المساحات الخضراء داخل المدن كانت تقع في محيطها خارج الأسوار بساتين الخضار والفاكهة.

د- حدائق القصور الهيلينستية

لم تعرف الحضارة الإغريقية حدائق القصور قبل الفترة الهيلينستية عندما تمكن الاسكندر المقدوني من مد نفوذه على مناطق واسعة ما بين فرنسا والهند ومن ضمنها بلاد فارس ومصر وتعرف على حضاراتها وأعجب بالقصور ذات الحدائق الغنية بالأزهار والأشجار المثمرة. مما حدا الإغريق إلى تقليدها والبدء بإنشاء قصور واسعة في مناطق مرتفعة خارج أسوار المدن تضم أفنية داخلية وحدائق كبيرة مسورة تشبه في تنظيمها الهندسي النماذج الفارسية والمصرية. وكان لذلك لاحقا تأثير على نشوء الفيلات الرومانية مع حدائقها خارج المدن.

خلاصة

عموما نستطيع القول على أنه رغم تنوع الحدائق الإغريقية فإن المعلومات حول تنسيق هذه الحدائق قليلة ويبدو أنها في أغلبها حدائق بسيطة مكونة من مجموعة من الأشجار تكون أشبه بغابة عند ارتباطها بالأماكن المقدسة والمعابد مع وجود بساتين خارج أسوار المدن مخصصة لزراعة الأشجار المثمرة والخضراوات. ولم يتغير ذلك إلا في مرحلة متأخرة في القصور والفيلات الهيلينية ولكن لا توجد هنا أيضا دلائل واضحة على طريقة تنسيق الحدائق ضمنها.